٩- فصل

خلافة المأمون بن هارون الرشيد واسمه عبد الله(١)

[١١٣] **ومما وضع في بطون الدفاتر** : واستحسنته عيون البصائر ، ونقلته الأصاغر عن الأكابر ، ماروواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال طلبني أمير المؤمنين المأمون ليلة وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي : خذ معك فلانا وفلانا وسماهما لي أحدهما علي بن محمد والآخر دينار الخادم ، واذهب مسرعا لما أقول لك ، فإنه بلغني أن شيخا يحضر ليلا إلى آثار دور البرامكة ، وينشد شعرا ، ويذكرهم ذكرا كثيرا ، ويندبهم ويبكي عليهم ، ثم ينصرف؛ فامض أنت وعليّ ودينار حتى تردوا تلك الخرائب ، فاستتروا خلف بعض الجدران ، فإذا الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتا ، فأتوني به .

قال : فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرائب ، فإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسي حديد ، وإذا شيخ قد جاء وله جمال وعليه مهابة ولطف ، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول هذه الأبيات :

ولما رأيت السيف جندل جعفرا ونادى مناد للخليفة يا يحيى

بكيت على الدنيا وزاد تأسفي عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

---

(١) عبد الله بن هارون الرشيد ، المأمون : من كبار خلفاء الدولة العباسية ، عني بالأدب والعلوم ، وأنشأ "بيت الحكمة" في بغداد فازدهرت في عهده الترجمة والنقل ، ناصر المعتزلة ، وامتحن الناس في خلق القرآن . قتل أخاه الأمين . ت[٢١٨هـ = ٨٨٣م] . انظر : تاريخ بغداد (١٠/١٨٣) ، المسعودي (٢/٢٤٧) .

مع أبيات أطالها ، فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له : أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعا شديدا وقال : دعونى حتى أوصى بوصية فإنى لا أوقن بعدها بحياة ، ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية وسلمها إلى غلامه ، ثم سرنا به . فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين قال حين رآه : من أنت وبما استوجبت منك البرامكة ماتفعله فى خرائب دورهم ؟ قال الخادم : ونحن نسمع ، فقال : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أيادى خضراء عندى ، أفتأذن لى أن أحدثك بحالى معهم ، قال : قل فقال : يا أمير المؤمنين أنا المنذر ابن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال .

فلما ركبنى الدين واحتجت إلى بيع ما على رأسى ورؤوس أهلى وبيتى الذى ولدت فيه ، أشاروا على بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثين امرأة وصبيا وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ، ونزلنا فى بعض المساجد فدعوت ببعض ثياب كنت أعددتها لأستتر بها ، فلبستها وخرجت وتركتهم حياعا لا شىء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد سائلا عن البرامكة ، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفى جانبه شيخ بأحسن زى وزينة ، وعلى الباب خادمان وفى الجامع جماعة جلوس فطمعت فى القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم ، وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى والعرق يسيل منى ؛ لأنها لم تكن صناعتى ، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد .

فدخلت معهم وإذا يحيى جالس على دكة له وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده ، وإذا بأمرد نبت العذار

فى خديه قد أقبل من بعض المقاصير ، وبين يديه مائة خادم متمنطقون فى وسط كل خادم منطقة[1] من ذهب ، يقرب وزنها من ألف مثقال ، مع كل خادم مجمرة[2] من ذهب ، فى كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر[3] ، وقد قرن به مثله من العنبر السلطانى ، فوضعوه بين يدى الغلام وجلس إلى جنب يحيى، ثم قال للقاضى : تكلم وزوج ابنتى عائشة من ابن أخى هذا، فخطب القاضى خطبة النكاح وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمى ، ونظرت وإذا نحن فى المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر ، وإذا بمائة واثنى عشر خادما قد أقبلوا ومع كل خادم صينية من فضة على كل صينية ألف دينار ؛ فوضعوا بين يدى كل رجل منا صينية ، فرأيت القاضى والمشايخ يضعون الدنانير فى أكمامهم ، ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول ، حتى بقيت وحدى لا أجسر على أخذ الصينية فغمزنى الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب فى كمى والصينية فى يدى، فقمت وجعلت أتلفت إلى ورائى مخافة أن أمنع من الذهاب ، فبينما أنا كذلك إلى أن وصلت إلى صحن الدار ويحيى يلاحظنى فقال للخادم : ائتنى بهذا الرجل ، فأتيته فقال : مالى أراك تلتفت يمينا وشمالا ؟ فقصصت عليه قصتى ، فقال للخادم : ائتنى بولدى موسى[4]

---

(١) المِنطقة:شقة تشد على الوسط فترسل الأعلى على الأسفل والأسفل ينحر على الأرض

(٢) مجْمَرة : ما يجعل فيه العود والبخور .

(٣) الفِهْرَ : هو حجر رقيق ناعم يسحق به العود الذى جعلوه فى المجمرة .

(٤) موسى بن يحيى بن خالد البرمكى : أمير السند من رجال الدولة العباسية ، كان من غسان بن عباد فى أرض الهند ، وقبل رجوع غسان إلى العراق [٢١٦هـ] كتب إليه-

فأتاه به ، فقال له : يا ابنى إن هـذا الرجل غريب ، فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك فقبض موسى ولده على يدى ، وأدخلنى إلى دار من دوره فأكرمنى غاية الإكرام وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور .

فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال لـه : الوزير أمرنى بالعطف على هذا الفتى ، وقد علمت اشتغالى فى بيت أمير المؤمنين فأقبضه إليك وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام . ثم لما كان من الغد سلمنى أخوه أحمد . ثم لم أزل فى أيدى القوم يتداولونى مدة عشرة أيام ، لا أعرف خبر عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء .

فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا: قم اخرج إلى عيالك بسلام فقلت : وا ويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج على هذه الحالة ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لى : مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلى فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به ؛ فلما رفع الستر الأخير رأيت حجرة كالشمس حسنا ونورا واستقبلنى منها رائحة الند[1] والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج وحمل إلىَّ مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشور بضيعتين وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق

المأمون بتولية موسى ثغر السند . ت[٢٢١هـ = ٨٣٦م] . انظر : نوزهة الخواطر (٦٢/١) .

(١) النَدّ : عود يتبخر به .

وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لايعلم الناس أَمِنَ البرامكة أنا أم رجل غريب .

فلما جاءتهم البلية ونزل بهم يا أمير المؤمنين من الرشيد ما نزل أجحف بى عمرو بن مسعدة ، وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج مالا يفى دخلهما به ؛ فلما تحامل على الدهر كنت في آخر الليل أقصد خرابات دورهم ، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلىَّ وأبكى على إحسانهم .

فقال المأمون : على بعمرو بن مسعدة ، فلما أتى به قال له : تعرف هذا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة ، قال : كم ألزمته فى ضيعته ؟ قال : كذا وكذا ، فقال له : رد إليه كل ما أخذته منه فى مدته وأفرغهما له ليكونا له ولعقبه من بعده ، قال : فَعَلاَ نحيب[1] الرجل فلما رأى المأمون كثرة بكائه ، قال له : يا هذا قد أحسنا إليك ، فما يبكيك؟ قال : يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنيع البرامكة لو لم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبرى إلى أمير المؤمنين ففعل بى ما فعل ، من أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين ، قال إبراهيم بن ميمون ، فرأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه ، وقال : لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك ، وإياهم فاشكر ، ولهم فأوف ولإحسانهم فاذكر ، انتهى .

[١١٤] **وقال إسحاق** : دخلت يوما على المأمون فى زمن الورد ، فقال لى: يا إسحاق هل قلت شيئاً فى الورد ؟ قلت : أقول بسعادة أمير

---

(١) نَحَبَ : رفع صوته بالبكاء .

المؤمنين وفكرت ساعة فلم تسمح قريحتى فى ذلك الوقت بشىء ، فخرجت من عنده وبقيت ليلتى ساهرا متفكر ، فلم يفتح على بشىء ، فلما أصبحت غدوت إلى دار الخلافة وإذا غلام الفضل بن مروان على باب المأمون ومعه سبع وردات على صينية فضة ينتظر الإذن فى الدخول بها عليه ، فسألته المهلة بها قليلا فامتنع ، فسألته ثانيا وقلت : أمهل قليلا ولك بكل وردة دينار ، فأحابنى إلى ذلك فدفعت له سبعة دنانير وأحببت أن لايصل إليه الورد قبل وصول الشعر وخرجت أقصد الأزقة لعلى أسمع شيئاً من أحد أو ينبعث خاطرى ، ولو ببيت واحد ؛ فبينما أنا كذلك ، وإذا أنا برجل يغربل التراب وهو ينشد ويقول :

اشرب على ورد الخدود فإنه	أزهى وأبهى فالصبوح يطيب
ما الورد أحسن من تورد وجنة	حمراء جاد بها عليك حبيب
صبغ المدام بياضها فكأنه	ذهب بقالب فضة مضروب

فلما سمعته نزلت عن دابتى ودخلت مسجدا بالقرب منه وطلبته ، فلما أقبل سألته أن يمليها على فاعتل وقال : إن أردت فاعطنى بكل بيت عشرة دنانير ، فدفعتها له واستمليتها منه ، ثم عدت أنا وغلام الفضل بن مروان وإذا بالمأمون يشرب من وراء الستارة ؛ فلما حسيت العود قال : لجواريه اسكتن فقد جاء إسحاق فقدمت ذلك الورد بين يديه وأنشدت الأبيات فسمعت الشهيق والزفير من وراء الستارة ، ثم أخرج إلى بدرة فيها عشرة آلاف درهم فأعدت الأبيات ، فأخرج إلى بدرة أخرى ، فأعدت الثالثة فأخرج إلى بدرة ثالثة ، فأخذت فى غير الشعر ، فخرج إلىَّ خادم وقال: يقول لك أمير المؤمنين لو دمت على إنشادك لدمنا على البدرة ، ولو إلى الليل، انتهى من حلبة الكميت .

[١١٥] ويحكى عن العباس صاحب شرطة المأمون قال : دخلت إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد يوما ، وبين يديه رجل مكبل بالحديد فقال لى : يا عباس ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : خذ هذا إليك فاستوثق به واحتفظ عليه وبكر به إلى فى غد واحترز عليه كل الاحتراز . قال العباس : فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر أن يتحرك ، فقلت فى نفسى : مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معى فى بيتى .

فلما تركوه فى دارى أخذت أسأله عن قضيته وحاله ومن هو فقال : أنا من دمشق فقلت : جزى الله دمشق خيرا ، فمن أنت من أهلها ؟ فقال : وعمن تسأل ، قلت : أو تعرف فلانا ؟ قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟ فقلت : وقعت لى معه قضية ، فقال : ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه ، فقلت : ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فسمعت أهلها وقد خرجوا علينا ، حتى أن الوالى خرج فى زنبيل[1] من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه ، وهربت فى جملة القوم ؛ فبينما أنا هارب فى بعض الدور وإذا بجماعة يعدون ، فما زلت أعدو أمامهم حتى تجاوزتهم ومررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك وهو جالس على باب داره، فقلت : يا هذا أغثنى أغاثك الله ، قال : لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت، فقالت لى زوجته : ادخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك فقال : دونكم الدار فتشوها ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك

---

(١) زِنْبِيل : الجراب .

المقصورة وامرأته فيها فقالوا : ها هو هنا فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا ، وخرّج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاى من شدة الخوف ، فقالت المرأة : اجلس لابأس عليك ، فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل ، فقال : لا تخف فقد صرف الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى .

فقلت : جزاك الله خيرا ، فما زال يعاشرنى أحسن معاشرة وأحملها وأفرد لى مكانا من داره ولم يحوجنى إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالى، فأقمت عنده أربعة أشهر فى أتم عيش وأرغده إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها ، فقلت له : أتأذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى فلعلى أقف منهم على خبر ، فأخذ علىَّ المواثيق بالرجوع إليه ؛ فخرجت وطلبت غلمانى فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته بالخبر ، وهو مع هذا كله لا يعرفنى ولايعرف من أنا . فقال لى : علام تعزم ؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد ، قال : إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج ، فقلت له : إنك قد تفضلت علىَّ هذه المدة ؛ لك على عهد الله إننى لا أنسى لك هذا الفضل ولأوفينك مهما استطعت ، قال : فدعا بغلام أسود ، وقال له : انعل الفرس الفلانى ، ثم جهز آلة السفر ، فقلت فى نفسى : ما أشك أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحى ، فأقاموا يومهم ذلك فى كد وتعب .

فلما كان يوم خروج القافلة جاء فى السحر ، فقال : يا فلان قم فإن القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها ، فقلت فى نفسى : كيف أصنع وليس معى ما أتزود به ولا ما أكرى به مركبا ، ثم قمت فإذا هو وامرأته

يحملان بقجة[1] من أفخر اللباس ، وخفين حديدين ، وآلة السفر ، ثم جاءنى بسيف ومنطقة فشدهما فى وسطى ، ثم قدم لى غلاما وعلى كتفه صرتان وفوقهما مرتبة السفر وسجادة من أفخر ما يكون ، وأعلمنى بما فى الصرتين : أنه خمسة آلاف درهم وشد لى الفرس الذى أنعله بسرجه ولجامه وقال لى : اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل هو وامرأته يعتذران إلى من التقصير فى أمرى ، وأركب معى من يشيعنى وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأوفى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته، واشتغلت مع أمير المؤمنين ، فلم أقدر أتفرغ ، إلى أن أرسل إليه من يكشف خبره ؛ فلهذا أسأل عنه .

فلما سمع الرجل الحديث قال : قد أمكنك الله من الوفاء له ، ومكافأته على فعله ، ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك ، فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ذلك الرجل ، وإنما الضر الذى أنا فيه قد غير عليك حالى ، وما كنت تعرفه منى ثم لم يزل يذكر لى تفاصيل الأسباب ، حتى أثبت معرفته ، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ، ثم قلت له : فما الذى صيرك إلى ما أرى ؟ قال : هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك فنسبت إلىَّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش ، فضبطوا البلد فأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت وبعث بى إلى أمير المؤمنين ، وأمرى عنده عظيم وهو قاتلى لا محالة ، وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية ، وقد تبعنى من ينصرف إليهم بخبرى وهو نازل عند فلان ، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن

---

(١) بقجة : صُرة الثياب .

ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأه وقمت بوفاء عهدك .

قال العباس : فقلت : يصنع الله خيرا ، ثم أحضر حدادا فى الليل وفك قيوده وأزال ما كان عليه من الأنكال ، وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ، ثم سير من أحضر إليه غلامه ؛ فلما رآه جعل يبكى ويوصيه فاستدعى العباس نائبه وقال : على بفرسى الفلانى والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة من الصناديق من الكسوة كذا وكذا قال : ذلك الرجل وأحضر لى بدرة فيها عشرة آلاف درهم وكيسا فيه خمسة آلاف دينار ، وقال لعامله فى الشرطة : خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار .

فقال له : إن ذنبى عظيم عند أمير المؤمنين وخطبى جسيم ، وإن أنت احتجيت بأنى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابه فأرادوا قتلى ، فقال : انج بنفسك ، ودعنى أدبر أمرى فقال : والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك ، فإن احتجت إلى حضورى حضرت ، فقال لصاحب الشرطة : إن كان الأمر على ما يقول فليكن فى موضع كذا، وكذا فإن أنا سلمت فى غداة غد أعلمته ، وإن أنا قتلت وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم ، وتجتهد فى إخراجه من بغداد .

قال الرجل : فأخذنى صاحب الشرطة ، وصيرنى فى مكان يشق به وتفرغ العباس لنفسه ، وتحنط وجهز له كفنا ، قال : فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا و رسل المأمون فى طلبى يقولون : يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم ، قال : فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين ، وإذا هو جالس

وعليه كآبه ، فقال : أين الرجل ؟ فسكت ، فقال : ويحك أين الرجل ؟ فسكت ، فقال : ويحك أين الرجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين اسمع منى ما أقول ، فقال :لله على عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك ، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين إنه ما هرب ولكن اسمع ، حديثى معه : كيت وكيت، وقصصت عليه القصة جميعا ، وعرفته أنى أريد أن أفى له وأكافئه على ما فعله معى ، وقلت : أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين إما أن يصفح عنى ، وقد وفيت وكافأت ، وإما أن يقتلنى فأقيه بنفسى وقد تحنطت وها كفنى يا أمير المؤمنين .

فلما سمع المأمون الحديث قال : ويحك لاجزاك الله خيرا عن نفسك إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة ، وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لاغير ؛ هلا عرفتنى خبره فكنت أكافئه عنك ، ولا أقصر بوفائى له ، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا وقد حلف أنه لا يبرح حتى يعرف سلامتى ، فإن احتجت إلى حضوره حضر ، فقال المأمون : وهذه منه أعظم من الأولى اذهب الآن فطيب نفسه وسكن روعه وائتنى به حتى أتولى مكافأته عنك ، قال : فأتيت إليه وقلت : ليزل عنك حزنك إن أمير المؤمنين قال : كيت وكيت ، فقال : الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء أحد سواه ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم أتيت به إلى أمير المؤمنين ؛ فلما مثل بين يديه أقبل عليه وأدنى مجلسه وحدثه ، حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق ، فاستعفى عنها ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ، ولجامها وعشرة أبغال بآلاتها ، وعشر بدر ، وعشرة آلاف دينار ، وعشرة مماليك بدوابهم ، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به ، وأطلق خراجه وأمر بمكاتبته بأحوال دمشق ، فصارت كتبه تصل إلى

المأمون ، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى : يا عباس هذا كتاب صديقك ، والله أعلم .

[١١٦] ويحكى عن إسحاق الموصلى أنه قال : خرجت ليلة من عند المأمون متوجها إلى بيتى ، فأحسست بالبول ، فعمدت لزقاق وقمت لأتمسح بالحيطان ، وإذا بزنبيل كبير بأربعة آذان ملبس ديباجا ، فقلت : إن لهذا سببا وبقيت متحيرا فى أمره فحملنى السكر على أن أجلس فيه فجلست ؛ فلما أحس بى الذين كانوا يرقبونه جذبوه إلى رأس الحائط فإذا أنا بأربع جوار يقلن لى : انزل بالرحب والسعة ومشت بين يدي جارية بشمعة ، حتى نزلت إلى دار ومجالس مفروشة ، لم أر مثلها إلا فى دار الخلافة ، فجلست فما شعرت بعد ساعة إلا بستور قد رفعت فى ناحية من الجدران ، وإذا بوصائف يتمشين وفى أيديهن الشمع ، وبعض محامر يحرق فيهن العود وبينهن جارية كأنها البدر الطالع ؛ فنهضت وقالت : مرحبا بك من زائر وجلست ، ثم سألتنى عن خبرى ، فقلت : انصرفت من عند بعض إخوانى وغرنى الوقت ، وحرقنى البول فعمدت إلى هذا الزقاق فوجدت زنبيلا معلقا، فحملنى السكر على أن جلست فيه فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبنيه ، قالت: لاضير وأرجو أن تحمد عاقبة أمرك ، ثم قالت : فما صناعتك ؟ قلت : بزاز[1] ببغداد ، فقالت : هل رويت من الأشعار شيئا ؟ قلت : شيئا ضعيفا ، قالت : فذاكرنا شيئاً ، قلت : إن للداخل حشمة ، ولكن تبدئين أنت ، قالت : صدقت فأنشدتنى شعرا لجماعة من القدماء والمحدثين من أجود أقاويلهم ، وأنا مستمع لا أدرى مم أعجب من حسنها

---

(١) بزاز : بائع ثياب .

أم من حسن روايتها، ثم قالت : أذهب ماكان فيك من الحصر ؟ قلت : أى والله ، قالت : فإن رأيت أن تنشدنا، فأنشدتها شيئاً لجماعة من القدماء ما فيه مقنع ، فاستحسنت ذلك ، ثم قالت: والله ماظننت أن يوجد فى أبناء السوقة مثل هذا ، ثم أمرت بالطعام فأحضر فجعلت تقطع وتضع قدامى وفى المجلس من صنوف الرياحين وغريب الفواكه ما لا يكون إلا عند السلطان ، ودعت بالشراب فشربت قدحا ، ثم ناولتنى قدحا ، ثم قالت : هذا أوان المذاكرة والأخبار ، فاندفعت أذاكرها وقلت : بلغنى أن كذا وكذا وكان رجل يقال له : كذا حتى أتيت على عدة أخبار حسان ، فسرت بذلك وقالت كثر تعجبى أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا، وإنما هذه أحاديث ملوك ! فقلت : كان لى جار يحادث الملوك وينادمهم، وإذا تعطل حضرت معه فربما حدثت بما سمعت ، فقالت : لعمرى لقد أحسنت الحفظ وما هذه إلا قريحة جيدة وأخذنا فى المذاكرة ، إذا سكت ابتدأت هى ، وإذا سكتت ابتدأت أنا، حتى قطعنا أكثر الليل وبخور العود يعبق وأنا فى حالة لو توهمها المأمون لطار شوقا إليها .

فقالت : إنك من أظرف الرجال وضىء الوجه ، بارع فى الأدب وما بقى إلا شىء واحد ، قلت : وما هو ؟ قالت : لو كنت تترنم ببعض الأشعار؟ قلت : والله لقديما كنت ألفت به ولم أرزقه ، وأعرضت عنه وفى قلبى منه حرارة ، وكنت أحب فى مثل هذا المجلس شيئا منه لتكمل ليلتى. قالت : كأنك عرضت ، فقلت : والله ما هو تعريض قد بدأتِ بالفضل وأنتِ جديرة بذلك ، فأمرت بعود فحضر وغنت بصوت ما سمعت بحسنه مع حسن أدبها ، وجودة الضرب بالكمال الراجح ، ثم قالت: هل تعرف هذا الصوت ومن غنى به ؟ قلت : لا ، قالت : الشعر لفلان ، والغناء

لإسحاق ، قلت : و إسحاق هذا -جُعلت فداكِ- بهذه الصفة ؟ قالت : بخ بخ إسحاق بارع فى هذا الشأن ، فقلت : سبحان الله ، أعطى هـذا الرجل مالم يعطه أحد ، قالت : فكيف لو سمعت هذا الصوت منه ، ثم لم تزل على ذلك ؛ حتى إذا كان الفجر أقبلت عجوز كأنها داية لها ، وقالت : إن الوقت قد حضر فنهضت عند قولها . فقالت : لتستر ما كنا فيه ، فإن المجالس بالأمانات .

قلت : جُعلْتُ فداكِ لم أكن أحتاج إلى وصية فى ذلك ، فودعتها وجارية بين يدى إلى باب الدار ، ففتح لى فخرجت ، ورجت إلى دارى فصليت الصبح ونمت ، فانتهى رسول المأمون إلىَّ فسرت إليه ، وأقمت عنده نهارى .

فلما كان العشاء تفكرت ما كنت فيه البارحة ، وهذا شىء لا يصبر عنه إلا جاهل ، فخرجت وجئت إلى الزنبيل فوجدته على عادته ، فجلست فيه ورفعت إلى موضعى البارحة ، وإذا هى قد طلعت فقالت : لقد عاودت، فقلت : ولا أظن إلا أننى قد ثقلت وأخذنا فى المحادثة مثل تلك الليلة السالفة فى المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها ، إلى الفجر فانصرفت إلى منزلى ، فصليت الصبح ونمت فانتهى رسول أمير المؤمنين إلى فمضيت إليه وأقمت نهارى عنده .

فلما كانت العشية وجه إلى خطابا ، وقال : أقسمت عليك لتجلسن حتى أجىء وأحضر ، فما كان حتى أن غاب وجالت وساوسى ؛ فلما تذكرت ما كنت فيه هان على ما يخصنى من أمير المؤمنين ، فوثبت مبادرا وخرجت جاريا حتى أتيت الزنبيل ، فجلست فيه فرفعت إلى

مجلسى . فقالت : صديقنا ، قلت : إى والله ؛ قالت: أجعلتها دار إقامة ؟ قلت : جُعلْتُ فداك ؛ حق الضيافة ثلاثة أيام ، فإن رجعت بعد ذلك فأنتم فى حل من دمى . ثم جلسنا على ذلك الحال ، فلما قرب الوقت علمت بأن المأمون لابد أن يسألنى فلا يقنع إلا بشرح القصة .

فقلت : إنى أراكِ ممن يعجب بالغناء ولى ابن عم أحسن منى وجها ، وأظرف قدا ، و أكثر أدبا ، وأطيب أرجا ، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق ، فقالت : طفيلى وتقترح ! قلت لها : أنت المحكمة ، ثم قالت : إن كان ابن عمك على ما تصف فما نكره معرفته ، ثم جاء الوقت فنهضت وقمت وذهبت ، فلم أصل إلى دارى إلا ورسل المأمون قد هجموا علىَّ وحملونى حملا عنيفا فوجدته قاعدا على كرسى وهو مغتاظ.

فقال : يا إسحاق أخروجا عن الطاعة ؟ قلت : لا والله ، قال : فما قصتك أصدقنى ؟ قلت : نعم فى خلوة ؛ فأومأ إلى من بين يديه ، فتنحوا فحدثته الحديث وقلت له : وعدتها بك ، قال : أحسنت ، فأخذنا فى لذتنا ذلك اليوم والمأمون معلق القلب بها ، فما صدقنا أن جاء الوقت وسرنا وأنا أوصيه وأقول له : تجنب واحذر أن تنادنيى باسمى بحضرتها وغن وأنا لك تبع، وهو يقول : نعم . ثم سرنا إلى الزنبيل -فوجدناهما- اثنين فقعدنا فيهما ورفعنا إلى الموضع المعهود فحضرت وأقبلت وسلمت .

فلما رآها المأمون بهت فى حسنها وجمالها ، وأخذت تذاكره وتناشده الأشعار ، ثم أحضرت النبيذ -فشربنا- وهى مقبلة عليه مسرورة به، وهو أكثر فأخذت العود وغنت صوتا ، ثم قالت : وابن عمك هذا من التجار وأشارت إلىَّ ؟ قلت : نعم ، قالت : والله إنكما لقريبان ، فلما

شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب فصاح وقال : يا إسحاق قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : غن هذا الصوت ، فلما علمت أنه الخليفة نهضت إلى مكان فدخلته ، فلما فرغتُ من الصوت قال : انظر من رب هذه الدار ، فبادرت العجوزة ، وقالت : للحسن بن سهل[1] ، فقال : على به فغابت العجوز ساعة وإذا الحسن قد حضر ، فقال له المأمون : ألك ابنه ؟ قال : نعم ، قال : ما اسمها ؟ قال : بوران[2] ، قال : أمتزوجة؟ قال : لا والله ، قال : فإني أخطبها منك، قال : هي جاريتك وأمرها إليك، قال : قد تزوجتها على نقد ثلاثين ألفا تحمل إليك صبيحة يومنا هذا ، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتنا ، قال : نعم ؛ ثم خرجنا .

فقال : يا إسحاق لا توقف على هذا الحديث أحدا ، فسترته إلى أن مات المأمون . فما اجتمع لأحد مثل ما اجتمع لى فى تلك الأربعة أيام مجالسة المأمون بالنهار و بوران بالليل والله مارأيت أحدا من الرجال مثل المأمون ولاشاهدت امرأة تقارب بوران فهما وعقلا ، والله تعالى أعلم انتهى من حلبة الكميت .

[١١٧] وقيل : كان المأمون يوما ، يأكل مع أبيه الرشيد فلما فرغ جعلت جارية تصب الماء على يدى الرشيد ، فنظر إليها المأمون وأشار

---

(١) الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسى ، أبو محمد :وزير المأمون بعد أخيه الفضل، ووالد بوران التى تزوجها المأمون . ت[٢٣٥هـ] . انظر : وفيات الأعيان (١١٧/٢) .

(٢) بوران بنت الحسن بن سهل : من أجمل النساء أدبا وأخلاقا ، بنى بها المأمون فى شهر رمضان سنة [٢١٠هـ] وأنفق على عرسها أموالا جمة ، ت[٢٧١هـ].انظر : أعلام النساء (١٥٩/١) .

إليها كأنه يقبلها ، فأنكرت ذلك بعينها وأبطات فى الصب بقدر النظر إلى المأمون، فقال لها الرشيد : لأى شيء صغى الإبريق فى يدك ، فوالله لئن لم تصدقينى الحق لأضربن عنقك ؟ فقالت : ياسيدى نظر إلى عبد الله المأمون وأشار كأنه يقبلنى ، فأنكرت ذلك بعينى ، فنظر الرشيد إلى المأمون فسقط مغشيا عليه كأنه ميت مما داخله من الخوف والفزع ، فأخذه وضمه إلى صدره وقال : يا عبد الله أتحبها ؟ قال : إى والله يا أمير المؤمنين ، فقال : هى لك ، خذ بيدها وادخل بها فى هذه القبة ففعل .

فلما خرج إلى الرشيد قال له : هل قلت فى هذا شيئاً ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم أنشد يقول :

ظبى كنيت بطرفى ... عن الضمير إليه
قبلته من بعيد ... فاعتل من شفتيه
ورد أخبث رد ... بالكسر من حاجبيه
فما برحت مكانى ... حتى قدرت عليه

[١١٨] **وعن أبى عبد الله النميرى أنه قال** : كنت يوما مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر ؛ فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة فأطلق عنان فرسه وكان على سابق من الخيل ، فأشرف على نهر من ماء بحر الفرات ، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قائمة النهد ، كأنها القمر ليلة تمامه ، وبيدها قربة قد ملأتها من النهر ورفعتها عن كتفها ، وصعدت من حافة النهر فانحل وكاؤها[1] فصاحت

---

(١) وكاؤها : الحامل الذى تشد عليه القربة .

برفيع صوتها : يا أبت أدرك فاها قد غلبنى فوهـا لاطاقة لى بفيهـا . قـال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت القربة من يدها ، فقال لهـا المـأمون : يا جارية من أى العرب أنت ؟ فقـالت : أنـا مـن بنـى كـلاب ، قـال : ومـا حملك أن تكونى من الكلاب ؟ قالت : والله لست من الكـلاب وإنمـا أنـا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف ويضربون بالسيف ، ثم قالت : يا فتى من أى الناس أنت ؟ قال : أو عندكم علم بالأنساب ؟ قالت : نعم ، قـال : أنا مـن مضـر الحمـراء، قـالت : مـن أى مضـر ؟ قـال : مـن أكرمهـا نسبا وأعظمها حسبا وخيرها أما وأبا ممن تهابه مضـر وتخشـاه ، قـالت: أظنـك من كنانة ، قال : أنا من كنانة ، قالت : من أى كنانة ؟ قال : مـن أكرمهـا مولدا وأشرفها محتدا وأطولها فى المكرمات يدا ممن تهابه كنانة وتخشاه، قالت: والله أنت من بنى هاشم ، قال : أنا من بنى هاشم ، قالت : مـن أى هاشم ؟ قال : من أعلاها منزلة وأشرفها قبيلة ، ممن تهابه هاشم وتخشاه ، قال : فعند ذلك قبلت الأرض ، وقالت : السـلام عليـك يـا أمـير المؤمنيـن وخليفة رسـول رب العـالمين ، قـال: فعجـب المـأمون منهـا وطـرب طربـا شديدا ، ثم قال : لأتزوجن بهـا لأنهـا مـن أكبر الغنـائم ، ثـم وقـف حتـى تلاحقته العسكر فنزل وأرسل خلـف أبيهـا وخطبهـا منـه فزوجـه بهـا وهـى والدة العباس ، والله أعلم .

[١١٩] ومن محاسن الأخلاق ، ما حكـى عـن القـاضى يحيى بـن أكثم قال : كنت نائما ذات ليلة عنـد المـأمون ، فعطـش فـامتنع أن يصيـح بغلام يسيقه وأنا نـائم فينغـص علـىَّ نومـى ، فرأيتـه وقـد قـام يتمشـى علـى أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء، وكان بينه وبين المـاء نحـو ثلاثمائـة خطوة ، ثم رجع يتمشى علـى أطـراف أصابعـه حتـى وصـل إلـى الفـراش ،

الذى أنا عليه رخطا خطوات لطيفه لئلا ينبهنى حتى وصل إلى فراشه ، ثم رأيته آخر الليل وقد قام يبول فقعد طويلا يحاول أن أتحرك فيصيح للغلام، فلمّا تحركت وثب قائما وصاح بالغلام وتأهب للصلاة ؛ ثم جاء إلىَّ وقال: كيف أصبحت يا أبا محمد ، وكيف مبيتك ؟ قلت : بخير مبيت جعلنى الله فداك .

قال : قد استيقظت للصلاة فكرهت أن أصيح بالغلام فأزعجك ، فقلت : يا أمير المؤمنين لقد خصك الله بأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ووهب لك سيرتهم ، فهناك الله بهذه النعمة وأتمها عليك فأمر لى بألف دينار وانصرف .

[١٢٠] وحدث سليمان الوراق قال : ما رأيت أعظم حلما من المأمون دخلت عليه يوما ، وفى يده فص مستطيل من ياقوت أحمر له شعاع قد أضاء له المجلس ، وهو يقلبه بيده ويستحسنه ، ثم دعا برجل صائغ ، وقال له : اصنع بهذا الفص كذا وكذا ونزل فيه كذا وكذا ، وعرفه كيف يعمل به ؛ فأخذه الصائغ وانصرف ، ثم عدت إلى المأمون بعد ثلاث فتذكره، فاستدعى بالصائغ فأتى به وهو يرعد وقد انتقع لونه ، فقال المأمون: ما فعلت بالفص ؟ فتلجلج الرجل ولم ينطق بكلام ، ففهم المأمون بالفراسة أنه حصل فيه خلل ، فولى وجهه عنه حتى سكن جأشه ثم التفت إليه وأعاد القول ؟ فقال : الأمان يا أمير المؤمنين ، قال : لك الأمان ، فأخرج الفص أربع قطع وقال : يا أمير المؤمنين سقط من يدى على السندال فصار كما ترى . فقال المأمون : لا بأس عليك اصنع به أربع خواتم ، وألطف له فى الكلام حتى ظننت أنه كان يشتهى الفص على أربع.

فلما خرج الرجل من عنده ، قال : أتدرون كم قيمة هذا الفص ؟ قلنا: لا ، قال : آشتراه الرشيد بمائة ألف وعشرين ألفا انتهى .

[١٢١] **ومن حلمه أيضا قال يحيى** : كنت أنا والمأمون يوما فى بستان ندور فيه فمشينا فى البستان من أوله إلى آخره وكنت مما يلى الشمس والمأمون مما يلى الظل، فكان يجذبنى أن أكون فى الظل وهو فى الشمس فأمتنع من ذلك ، فإذا رجعنا قال لى: والله يا يحيى لتكونن فى مكانى ولأكونن فى مكانك حتى آخذ نصيبى من الشمس كما أخذت نصيبك منها .

فقلت : والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيلك من هول المطلع لفعلت ، ولم يزل بى حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقى وقال : بحياتى إليك إلا ما وضعت يدك على عاتقى مثل ما فعلت فإنه لاخير فى صحبة من لاينصف .

[١٢٢] و[**قيل**] **من حلمه أيضا** : أنه كان له خادم يسرق طاساته التى يتوضأ فيها ، فقال له المأمون : إذا سرقت شيئا فأتنى بما تسرقه فأشتريه منك ، فقال له الخادم : اشتر منى هذه وأشار إلى التى بين يديه ، فقال : بكم ؟ قال : بدينارين ، قال: على شرط إنك لاتسرقها ، قال : نعم. فأعطاه دينارين ، فلم يعد الخادم يسرق بعدها شيئا لما رأى من حلمه والله أعلم .

[١٢٣] **وروى بعض أهل الأدب** : أن فتى من أهل الكوفة قد فاق أهل زمانه فى الأدب والبيان والفصاحة باللسان ، ناقدا فى صناعته ، حافظا للأقدار ، راو للأشعار ، خبيرا بسير الملوك فى الأيام السالفة ، بصيرا

بالبحث عن أمورهم فى الأيام الآنفة ، حاذقا فى التصنيف ، فائقا فى التأليف ، صبيح الوجه ، مقبول المشاهد حلو الشمائل وكان مع ذلك لايتوجه له وجه من العمل إلا عارضه فيه عائق وحال دونه حائل وقدر سابق ؛ فبقى حينا من الدهر وقد برز فى القدر والمال والجاه من كان عنده فى الصناعة متأخرا ، فضاق صدره وعيل صبره وصلت مقاليده . فخرج إلى بغداد واكترى[1] فى بعض خاناتها منزلا ، وأجمع رأيه على أن يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكة أو ملكة ، وتربص لذلك أن يرى وجها إلى أن عزم أمير المؤمنين المأمون أن يشرب يوما هو وصنوه[2] المعتصم

فأمر المأمون بالاستعداد ليوم سماه ليخلو فيه مع الحوارى منفردين عن سائر الندماء ، فظهر خبرهما بذلك وعرف الناس ذلك اليوم الذى عزما عليه، فعزم هذا الأديب المذكور على أن يتطفل فى ذلك على المأمون وأخيه المعتصم ، فمضى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وزردية ، ومن آخر منطقة وخفا وسيفا، ومن آخر برذونا ، ومن آخر ما يحتاج إليه من الطيب ، واستعد لذلك اليوم ودخل الحمام سحرا وتطيب ولبس وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب : عرّف الأمير أنى رسول أمير المؤمنين ، واستأذن لى عليه فسعى الحاجب عدوا حتى أخبر المعتصم ، فأذن له ؛ فلما دخل عليه وتمثل بين يديه قال له : سيدى إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك : أنسيت الوعد ألم يقدم إليك بالركوب لنخلو ونستريح يومنا هذا ، قال المعتصم : لا والله ما

---

(١) اكترى : استأجر .

(٢) صنوه : الأخ الشقيق .

نسيت ذلك ، ولكن تربصت ساعة ونمت نومة لأتقوى بذلك على انتصابى سائر النهار ، فقال الفتى : فعجل الآن أيها الأمير فإنه أمرنى أن لا أفارقك حتى آتيه بك ، فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع فى التأهب ولبس ثيابه وتطيب وركب الفتى معه ، والمعتصم لاينكر شيئا من كلام الفتى ويتأمل للطافته وهيئته ولم يتوهم إلا أنه من بعض خواص المأمون ، وأخذ الفتى يحدث المعتصم ، وأقبل عليه بكليته ولم يتمكن من سؤاله شهوةً لاستماع حديثه ، حتى بلغ باب الخليفة فألقى الفتى نفسه عن دابته ، وأخذ يمشى بين يديه والحجاب لا ينكرون منه شيئاً ويظنون أنه من خدم المعتصم حتى نزل المعتصم ، وأخذ الفتى بركابه ودخل المجلس .

فلما استقر المعتصم فى مجلسه وجلس الفتى بين يديه ، وهو منهمك فى نوادره وأخباره والمعتصم مصغ إليه تعجبا مما يسمع من حسن كلامه ، وأُخبر المأمون أن المعتصم قد وصل ومعه رفيق لايعرف من هو ، فقال المأمون : أخى قد عرِف أن هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغى أن يحضره أحد من الناس إلا من هو عديل النفس ، وقد أحسن أخى إذ جعل لنا ثالثا ، فإن المجلس إذا لم يحضره أكثر من اثنين تعطل لقيام أحدهما إلى الصلاة ، وإلى ما لابد منه . ثم خرج من ساعته فرحا وليس له همة إلا تصفح وجه الغلام واستنطاقه واعتباره قده وعقله .

فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع فى نفس المأمون نهض قائما وقبل يد المأمون وعاد إلى مجلسه ، وأخذ فى نوادره وحديثه ومضحكاته ، وحسن أخباره وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر وهو مع ذلك يوهم المأمون أنه من خواص المعتصم فساعة يكنيه وساعة يسميه ،

حتى غلب على قلب المأمون وأظهر الحسد لأخيه فى صحبته مثل هذا الغلام وكلامه ، وأمر المأمون بإحضار المائدة فنصبت بأنواع الطعام فأكلوا وغسلوا أيديهم ، ولمجلس الشراب انتقلوا وأمر المأمون بإحضار الحوارى من غير ستارة فحضرن وأخذن فى الغناء ، فما من صوت يمر إلا والفتى عارف به وبالغناء ومتى قيل وفيمن قيل فعز فى عين المأمون حتى ملأ عينه وتزايد حسده لأخيه فى صحبة مثله ، فمس الفتى بول ولم يجد للمدافعة سبيلا ، فقام وهو متيقن أنهما سيذكرانه ويتواصفان أمره وحاله إذا خلا المجلس ، فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما ، حتى قال المأمون : لأخيه المعتصم يا أبا إسحاق من صاحبك هذا ، فوالله ما رأيت رجلا قط أكثر منه أدبا ، ولا أنظف هيئة ، ولا أشرف من شمائله ؟ فقال المعتصم : والله ما أعلم من هو وإنه جاءنى مبكرا برسالة أمير المؤمنين، فقال المأمون : سألتك بالله يا أخى أهو كذلك ؟ فقال إى والله الذى لا إله إلا هو، فقال المأمون : طفيلى ورب الكعبة وغضب وأمر الحوارى بالنهوض فنهضن ، وأقبل الفتى راجعا .

فلما نظر إلى خلو المجلس من الحوارى وإلى تغير وجه المأمون ، وقف على رأس المجلس ، وأقبل بوجه على المعتصم وقال : يا أبا إسحاق كأنى بك قد أخذت فى نوع الزور والبهتان ، وهذا المجلس من المجالس التى لا تحمل المزاح وما هكذا وعدتنى ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ما بليت من أحد من الناس مثل ما بليت من هذا ، لأنه دائما أبدا يعرضنى لمثل هذا وأشباهه ، ويغرى بى ويوقعنى فى كل ورطة، ثم أقبل على المعتصم وقال : يا أبا إسحاق سألتك بالله وبحق أمير المؤمنين إلا ما أعفيتنى من ملاعبتك التى لا تحتمل وتؤدى إلى مؤاخذة أمير المؤمنين ،

ولم يزل يأتي بهذا وأمثاله حتى شك المأمون في أمره والتفت إلى أخيه المعتصم وقال : سألتك بالله يا أخي بحياتي عليك ألا ما أعلمتني حقيقة أمره ؟ فقال المعتصم : يا أمير المؤمنين برئت من ذمة الله ورسوله ومن حياتك وولايتك إن كنت أعرفه أو رأيته قط إلا في يومي هذا ، فقال الفتى: كذب والله يا أمير المؤمنين لقد كنت معه دهري الطويل وفي مواضع كذا وكذا ، وإن هذا فعله معي أبدا فضحك المأمون تعجبا ، وقال: ادخل فدخل وأمره بالجلوس فجلس ثم قال : لك الأمان إن صدقتني فصدقه الحديث على وجهه ، فأعجب من حسن منطقه ولطف مدخله ودقيق تصرفه ، وأمر بإعادة الجواري إلى مجلسهن فطربوا سائر يومهم .

فقال له المأمون : أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة إلى بغداد واجعله نظما ولاتكتم عني شيئاً ، فقال : نعم ثم أنشأ يقول :

بينا أنا راقد في البيت مكتئب ... مفكر في حصول الكد والقوت
وليس في البيت لي شيء ألم به ... وبي من الجوع ما يدني إلى الموت
إذا بصوت بباب الدار أسمعه ... والأذن مصغية مني إلى الصوت
ناديت من ذا الذي أرجوه لي فرجا ... نادى أنا فرج زن لي كرا البيت

فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه ، ثم ضرب برجله الأرض من شدة إعجابه وقال : ثم ماذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين فخرجت ، فإذا هو صاحب الخان يطالبني بالكراء[1] فوعدته بأن يرجع إليّ مرة أخرى ، فمضى ومضيت على وجهي لا أعلم أين أتوجه فسألت كل من لقيته من

---

(١) الكراء : إيجار البيت .

صديق لى كنت أستأنس به ، فخطر على بالى بيتان من الشعر فى ذلك وهما :

غريب الدار ليس له صديق ... جميع سؤاله أين الطريق
تعلق بالسؤال لكل شخص ... كما يتعلق الرجل الغريق

فأشرفت يا أمير المؤمنين على جارية كأنها البدر ليلة كماله وهى تقول:

ترفق يا غريب فكل حر ... يمر بحاله سعة وضيق
وكل ملمة إن أنت فيها ... صبرت لها أتيح لها الطريق[1]

ثم قالت : خذ هذه فادفع بها فاقتك فوالله ما هى إلا مواساة من قوت ورمت إلى صدرى بقرطاس ، وإذا فيه عشرة دراهم فرجعت من فورى فوجدت صاحب الكراء قائما على الباب ، فدفعت إليه خمسة دراهم واستعنت بالباقى إلى أن وقعت هذه القصة وهذا الأمر الذى كلفنى وحملنى على ما فعلت وأنشأ يقول :

لعم آت فعلا غير مستحسن ... جهلا بفعل الأحسن الأملح
لكننى فى حالة أوجبت ... ضرورة إتيان مستقبح

فأعجب المأمون أمره واستحسنه ، وأمر له بمائة ألف درهم يصلح بها شأنه، وألحقه بمراتب الخاصة ، ورفعت منزلته عنده وصار أقرب الناس إليه ، وآخر خارج من عنده ، وأول داخل إليه ، وسمى طفيلى المعتصم وأنشد للمأمون يوما يقول :

---

(١) ملَمَّة : شِدة .

كـانت لقلبـى أهـواء مفرقـة ... فاستجمعت إذ رأتـك العيـن أهوائـى
تركـت للنـاس دنيـاهم ودينهـم ... شـغلا بذلـك عـن دينـى ودنيـائى
وصار يحسدنى مـن كنت أحسـده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى

فاستحسن المأمون الأبيات ، وأمر بكتبها على الستارة ، وصار الفتى إذا حضر يوم سرور المأمون لم يكن للمأمون هم إلا اقتراح هذه الأبيات إلى أن ينقضى المجلس، ثم إن الفتى بعد أن حسنت حالته أرسل إلى الدار التى أشرفت عليه منها الجارية ، فإذا هى لرجل من أهل بغداد من مباشريها وقد مات ولم يخلف ولدا سوى تلك الجارية وما مات حتى تضعضع حاله ؛ فأعلم المأمون بذلك فأمر بخطبتها للفتى ودفع المهر من عنده ، وصار الفتى والجارية فى نعمة عظيمة بقية عمرهما ، والله أعلم.

[١٢٤] و[قيل] : سرق شاب سرقة فأتى به إلى المأمون ، فأمر بقطع يده فتقدم لتقطع يده فأنشد الشاب يقول :

يدى يا أمير المؤمنين أعيذها ... بعفوك أن تلقى نكالا يشينها
فلا خير فى الدنيا ولاراحة بها ... إذا ما شمال فارقتها يمينها

وكانت أم الشاب واقفة على رأسه ، فبكت وقالت : يا أمير المؤمنين إنه ولدى وواحدى ناشدتك الله إلا رحمتنى ، وهدأت لوعتى وجدت بالعفو عمن استحق العقوبة فقال المأمون : هذا حد من حدود الله تعالى ، فقالت : يا أمير المؤمنين اجعل عفوك عن هذا الحد ذنبا من الذنوب التى تستغفر منها، فرق لها المأمون وعفا عنه .

[١٢٥] وفي حياة الحيوان[1] قال : رأيت في بعض المجاميع بخط بعض العلماء الأكابر : أن المأمون أشرف يوما من قصره فرأى رجلا قائما وبيده فحمة وهو يكتب بها على حائط قصره فقال المأمون لبعض خدمه : اذهب إلى ذلك الرجل فانظر ما كتب وائتني به ، فبادر الخادم إلى الرجل مسرعا وقبض عليه ، وقال : ما كتبت فإذا هو قد كتب هذين البيتين :

يا قصر جمع فيك الشوم واللوم ... متى يعشش في أركانك البوم
يوما يعشش فيك البوم من فرحي ... أكون أول من ينعاك مرغوم

ثم إن الخادم قال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال الرجل : سألتك بالله لا تذهب بي إليه ، فقال الخادم : لابد من ذلك ، ثم ذهب به . فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين وأعلمه بما كتب قال له المأمون : ويلك ما حملك على هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه لا يخفى عليك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال ، والحلى ، والحلل ، والطعام، والشراب ، والفرش ، والأواني، والأمتعة ، والحوارى ، والخدم ، وغير ذلك مما يقصر عنه ، وصفي ويعجز عنه فهمي ، وإني يا أمير المؤمنين قد مررت عليه الآن، وأنا في غاية من الجوع والفاقة فوقفت مفكرا في أمرى ، وقلت في نفسي : هذا القصر عامر عالٍ ، وأنا جائع ولا فائدة لنا فيه فلو كان خرابا ومررت به لم أعدم رخامةً أوخشبةً أومسماراً أبيعه وأتقوت بثمنه أو ما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ ... نصيب ولاحظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له غير أنه ... يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الباء (١/٢٣٢) .

فقال المأمون يا غلام أعطه ألف درهم ، ثم قال : هى لك فى كل سنة مادام قصرنا عامرا بأهله مسرورا بدولته ، وأنشدوا فى معنى ذلك :

إذا كنت فى أمر فكن فيه محسنا ... فعما قليل أنت ماض وتاركه

فكم دحست الأيام أرباب دولة ... وقد ملكوا أضعاف ما أنت مالكه

[١٢٦] ويحكى : أنه تنبأ[1] رجل فى أيام المأمون ، فقال ليحيى بن أكثم القاضى: يا يحيى امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبئ ، وإلى دعواه فركبا فى الليل مستترين ومعهما خادم ، حتى صار إلى بابه وكان مستترا بثوبه فاستأذنا عليه ، فخرج إليهما فقال : من أنتما ؟ فقالا : رجلان يريدان أن يسلما على يديك ، قال : ادخلا ، فدخلا وجلس المأمون عن يمينه ويحيى عن يساره ، فقال المأمون : إلى من بعثت ؟ قال: إلى الناس كافة ، قال : أفيوحى إليك أم ترى فى المنام أم ينفث فى قلبك ؟ قال: بل أناجى وأكلم ، قال : ومن يأتيك ؟ قال : جبريل ، قال : فمتى كان عندك؟ قال: الساعة قبل أن تأتيانى بساعة ، قال : فما أوحى إليك ؟ قال : أوحى إلى أنه سيدخل عليك رجلان فيجلس أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك والذى يجلس عن يسارك ألوط خلق الله تعالى ، فقال له المأمون : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وكان يحيى يعزى إلى ما قاله عنه المتنبئ ، انتهى .

---

(١) تنبأ أى ؛ ادعى النبوة كذبا .

[١٢٧] و[قيل][1] : دخل أبو نُواس على القاضى يحيى بن أكثم ودخل معه غلام جميل الوجه ، فقال الغلام : هذا مر علىّ وقبلنى كرها ففتن به القاضى فأنشد يقول :

إذا كنت للتخميش والبوس كارها ... فلا تدخل الأسواق إلا منقبا
ولا تظهر الأصداغ من تحت طرة ... وتشهر منها فوق خديك عقربا

فلما سمع الغلام ، أنشأ يقول :

لقد كنت أرجو أن أرى العدل بيننا ... فأعقبنى بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها ... إذا كان قاضى المسلمين يلوط

[١٢٨] ويحكى[2] : أنه كان عند المأمون يوما فقال له المأمون وهو يعرض له باللواط : يا يحيى من ذا الذى يقول :

قاض يرى الحد فى الزنا ولا ... يرى على من يلوط من باس

فقال له : الذى يقول :

ما أرى الحور ينقضى وعلى ... الأمة والٍ منكم بنى العباس

[١٢٩] ويقال : إن المأمون شرب يوما ومعه القاضى يحيى بن أكثم، فمال الساقى على القاضى حتى وقع سكران ، فأمر المأمون أن يلقى

---

(١) انظر : ثمرات الأوراق ص٤٠١ .

(٢) قلت : ونحن نربأ بالقاضى يحيى بن أكثم عن مثل هذه الحكايات التى دُسّت عليه حسدا ،وحقدا وننكرها ؛ كما أنكرها الإمام أحمد بن حنبل ، حيث قال : ما عرفت فيه بدعة . وكفى بشهادة إمام أهل السنة له . تقدمت ترجمته فقرة [٩١] .

عليه الورد والرياحين حتى يدفن فيها كأنه ميت ، وصنع بيتى شعر وقال : لمغنيته خذى العود وغنى على رأسه ، فغنت وقالت :

ناديته وهو حى لاحراك له	مزمل فى ثياب من رياحين
فقلت قم قال رجلى لا تطاوعنى	فقلت خذ قال كفى لايواتينى

فاستيقظ يحيى لرقة العود والجارية تغنى البيتين فقام وقال :

يا سيدى وأمير الناس كلهم	قد جار فى حكمه من كان يسقينى
سقانى الراح لم يمزج سلافتها	حتى بقيت سليب العقل لا الدين

[١٣٠] **قال الواقدى**[١] : كان إبراهيم بن المهدى ادعى لنفسه الخلافة بالرى[٢]، وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما وله أخبار كثيرة .

فمما حكاه قال : لما دخل المأمون الرى فى طلبى أثقل على الطلب وجعل لمن دل علىّ وأتاه بى مائة ألف درهم فخفت علّى نفسى وتحيرت فى أمرى ، فخرجت من دارى وقت الظهر وكان يوما صائفا وما أدرى أين أتوجه فمررت بزقاق لا ينفذ، فقلت : لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم إنالله وإنا إليه راجعون ، وخفت إن رجعت على أثرى يعلموا بى فرأيت فى

---

(١) محمد بن عمر بن واقد السهمى ، أبو عبد الله الواقدى : الحافظ ، صاحب المغازى والسير من أقدم المؤرخين فى الإسلام ، ت[٢٠٧هـ] . انظر : تذكرة الحفاظ (٣١٧/١) .

(٢) الرى : مدينة فى شمال إيران ، بضاحية طهران ، فتحها المسلمون فى صدر الإسلام، وازدهرت فى عهد العباسيين وكانت من العواصم الإسلامية التجارية والثقافية . ولد فيها هارون الرشيد . خربها المغول [٦١٧هـ] .

صدر الزقاق عبدا أسوداً قائمـا على بـاب داره، فتقدمت إليه وقلت لـه : عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار ، قال : نعم وفتح البـاب فدخلت إلى بيت نظيف فيه حصر نظيفة وبسط ومخدات جلد ، ثم إنه أغلق الباب عليَّ ومضى ، فخفت أن يكون سمع الجعالـة فى حقى ، وأنـه عرفنى ومضى ليدلهم عليَّ فبقيت مثل الحبة فى المقلاه قلقا ميتا من الخوف .

فبينما أنا كذلك إذا أقبل ومعه حمال حامل كـل مـا أحتـاج إليـه مـن لحم وخبز وقدر جديدة وجرة وكيزان جدد، ثم التفت إليَّ وقال : جعلنى الله فداك أنا رجل حجام ، وأنا أعرف إنك تنفر منى لما أتولاه من معيشتى فشأنك بما لم تقع عليه يدى ، وكان لى حاجة إلى الطعام فقمت وطبخت قدرا ما ظننت أنى أكلت مثلها قدرا ؛ فلما قضيت أربى قال لى: هـل لـك أن تشرب شيئاً فإنه يسلى الهم ، ويزيل الغم ، ويهد للنفس الفرح ؟ قلـت : ما أكره ذلك رغبة فى مؤانسته ، فأتى بقطرٍ ، ميز جديد ، وأحضر لى نقـلا وفاكهة فى أوانٍ جدد من فخار ثم قال بعد ذلك : إن أذنـت لـى -جعلـت فداك- أن أقعد بناحية منك وآتى بشراب فأشـرب مسرورا بـك ؛ فقلـت : افعل ، ففعل وشرب ثلاثا ، ثم دخل إلى خزانة له فـأخرج عـودا مصلحـا ، ثم قال : يا سيدى ليس من قدرى أن أسألك أن تغنى ولكن قد وجب علـى مروءتك حرمتى ، فإن رأيت أن تشرف عبـدك بـأن تغنى لنفسـك ، والعبـد يسمع فافعل فقلت له : ومن أين لـك أنـى أحسـن الغنـاء ؟ فقـال متعجبـا : سبحان الله أنت أشهر من ذلك أنت : إبراهيم بن المهدى خليفتنا بـالأمس، الذى جعل المأمون لمـن يـدل عليـك مائـة ألـف درهـم ؛ فلمـا قـال ذلـك عظمت مروءتـه عنـدى وعلمـت أن نخوتـه أجـل ممـا بـذل فتنـاولت العـود فأصلحته وقد مر بخاطرى ذكر أهلى وولدى فقلت :

وعسى الذى أهدى ليوسف أهله وأعزه فى السجن وهو غريب
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا فالله رب العالمين قريب

فقال : يا سيدى احعل ما تغنيه مما أقتضيك به ، قلت : نعم ، فقال : غن لى :

إن الذى عقد الذى انعقدت به عقد المكاره فهو يملك حلها
فاصبر فإن الله يعقب راحة فلعها أن تنحلى فلعلها

فحسن عندى اقتراحه وشربت ، ثم قال غن لى :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تيأسن فالله ملك يوسفا خزائنه بعد الخلاص من السجن

ففرح وشربت ، وقال غن لى :

إذا الحادثات بلغن النهى وكاد لهن تذوب المهج
وحل البلاء وقل العزاء فعند التناهى يكون الفرج

فغنيته وحسن فى نفسى اقتضاؤه ، وأنست به واستظرفته ثم قال : إن رأيت يا سيدى أن تأذن لى أن أغنى ما خطر ببالى وإن كنت من غير أهل هذه الصناعة ، فقلت : يكون ذلك زيادة فى أدبك ومروءتك فأخذ العود ثم قال : دستور ، ثم ضرب عليه وغنى ويقول :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم سريعا ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا مادنا الليل المضر بذى الهوى حزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

فقلت : والله ذهب عنى كل ما كان عندى من الفزع ، وسألته يغنى فغنى يقول :

تعيرنا أنا قليل عدادنا ... فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل
وأنا لقوم لانرى الموت سبة ... إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

فوالله لقد أجاد وذهب عنى كل ما كان من الفزع والجزع واستأنست به ، وأخذنى من الطرب ما لامزيد عليه وعالجنى النوم قبل أوانه، فنمت ولم أستيقظ إلا بعد المغرب، وجال فكرى فى هذا الحجام وأدبه وظرفه ، وكيف غناؤه وأدبه وإرادته أن يسلينى عما أنا فيه ، وإشارته إلى تخصيصه بالوفاء لضيفه ونصره لجاره ، فقعدت وغسلت وجهى وأيقظته ، وأخذت خريطة كانت صحبتى فيها دنانير ومصاغ له قيمة، فدفعتها إليه وقلت له : أنت فى وديعة الله وحفظه فإنى ماض عنك وأسألك أن تصرف ما فى هذه الخريطة[1] فى بعض مهماتك ، ولك عندى إذا أمنت المزيد، فأعادها علىَّ مبادرا ، وقال : يا سيدى الصعلوك من لا قيمة له عند أهل الرياسات ويظنون فيه الظنون الرديئة ، أفآخذ على ما وهبنى الله من قربك وحلولك فى منزلى ثمناً ؟ لا والله ، فألححت عليه ، فأخذ موسى له بيده ، وقال : والله إن راجعتنى لأنحرن نفسى ، فخشيت عليه وأخذت الخريطة وأثقلنى حملها ، فلما انتهيت إلى باب الدار قال : يا سيدى إن هذا الموضع أخفى لك من غيره وليس عندى فى مؤنتك ثقل، فأقم عندى

---

(١) الخَرِيطة : وعاء من الجلد .

إلى أن يفرج الله عنك فرجعت وسألته أن يكون منفقا من تلك الخريطة ، فلم يفعل وكان كل يوم يفعل بى مثل ما فعل فى اليوم الأول .

قال : فأقمت أياماً فى أطيب عيش وأهناه ، ثم سئمت من الإقامة عنده وخشيت الثقل عليه ، فتركنى ومضى يجدد لنا حالنا ، فلبست ثيابى وتزينت بزى النساء : بالخف والنقاب ، وخرجت . فلما صرت فى الطريق داخلنى من الخوف والفزع أمر شديد ومشيت لأعبر الجسر ، وإذا هو قدرش ورجل قائم فأبصرنى بعض من كان فى خدمتى من الجند ، فتعلق بى وقال : طلبة أمير المؤمنين فدفعته فى صدره فوقع فى الزلق[1] ، وصار عبرة وتبادر الناس إليه ، فاجتهدت فى المشى حتى قطعت الجسر ودخلت زقاقا فوجدت بابا وامرأة واقفة فقلت : يا سيدة النساء احقنى دمى فإنى رجل خائف ، فقالت: ادخل فدخلت فأطلعتنى إلى غرفة وفرشت لى ، وقدمت لى طعاما وقالت : ليهدأ روعك فإنه لا يعلم بك مخلوق ، ولو أقمت سنة ما عليك بأس، وإذا بالباب يدق فخرجت ، وفتحت الباب ، فإذا هو صاحبى الذى دفعته على الجسر وهو مشدوخ[2] الرأس ودمه يسيل على ثيابه فقالت له : ما دهاك ؟ قال : إن حديثى عجيب وأمرى غريب ظفرت بالغنى ، وقد انفلت من يدى. قالت : وكيف ؟ قال : إبراهيم بن المهدى لقيته فتعلقت به فدفعنى فأصابنى ما ترين من حالى ، ولو حملته إلى أمير المؤمنين ، لأخذت منه مائة ألف درهم . قال : فأخرجت له حراقا وذروراً وفرشت له بعد كبس جرحه، فنام قليلا وطلعت . وقالت لى : أظنك

---

(١) الزَّلَق : أرض ملساء لا تثبت عليها قدم .

(٢) مشدوخ : مكسورة .

صاحب القصة؟ قلت: نعم ، فقالت لى : إنى خائفة عليك ، ثم جددت لى الكرامة وأقمت عندها ثلاثة أيام . ثم قالت لى : إنى خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع على أمرك، فينم عليك ، فانج بنفسك ، فسألتها إمهالى إلى الليل .

فلما دخل الليل ، لبست زى النساء وخرجت من عندها ، وأتيت إلى بيت مولاة لنا ؛ فلما رأتنى بكت وتوجعت وحمدت الله تعالى على سلامتى، وخرجت كأنها تريد كرامتى فتوجهت للسوق مظهرة الاهتمام بالضيافة فظننت خيرا ، فلم أشعر إلا بإبراهيم الموصلى بخيله ورجله والمولاة معه حتى سلمتنى إليه ؛ فرأيت الموت عيانا وحملت مثل ما أنا إلى أمير المؤمنين . فجلس مجلسا عاما وأمر بإدخالى عليه .

فلما مثلت بين يديه سلمت عليه سلام الخلافة ، فقال لى : لا سلمك الله ، ولا حفظك، ولا رعاك . فقلت: يا أمير المؤمنين إن ولى الثأر محكم فى القصاص، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناولته يد الأقدار ربما مد له من أسباب الرجاء ، ما يأمن معه عادية الدهر وقد جعلك الله فوق خلقه، وأصبح عفوك فوق كل ذى عفو، فإن تأخذ فبحقك ، وإن تعف فبفضلك وأنشدت أقول :

ذنبى إليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا ... فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن فى فعالى ... من الكرام فكنه

قال : فرفع رأسه إلى فقلت مبتدرا :

أتيـــت ذنبـــا عظيمـــا وأنـــت للعفـــو أهـــل
فـــإن عفـــوت فمـــنِ وإن جزيـــت فعـــدل

قال : فرق المأمون ، واسترجع فرأيت روائح الرحمة فى شمائله ، ثم أقبل على أخيه ، أبى إسحاق محمد المعتصم ، وابنه العباس[1] ، وجميع من حضر من خاصته ، وقال : ما ترون فى أمره ؟ فأشار الكل بقتلى ، إلا أنهم اختلفوا فى القتل. فقال المأمون لأحمد بن أبى خالد : ما تقول يا أحمد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن قتلته فقد وجدنا مثلك قتل مثله ، وإن عفوت لم نجد مثلك فى العفو . فنكس المأمون رأسه إلى الأرض وجعل يخط فى الأرض بأصبعه ، ثم رفع رأسه وقال :

قومـــى همـــو قتلـــوا أميـــم أخى فـــإذا رميـــت يصيبنـــى ســـهمى

ثم قال المأمون : لا بأس عليك يا عم : فقلت : ذنبى يا أمير المؤمنين أعظم من أن أفوه معه بعذر ، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ، ولكن أقول شعرا :

إن الذى خلق المكـارم حازهـا فـى صلـب آدم للإمـام السـابع
ملئت قلوب الناس منك مهابـة وتظـل تكلؤهـم بقلـب خاشـع

---

(١) العباس بن عبد الله المأمون بن هارون الرشيد : أمير عباسى . ولاه أبوه الجزيرة والثغور والعواصم [٢١٣هـ] ولما مات المأمون ، وولى المعتصم امتنع كثير من القواد والرؤساء من متابعته ونادو باسم ابن أخيه العباس بن المأمون ، فدعاه المعتصم إليه وأخذ بيعته ، فخرج العباس وسكن الناس وأقام إلى أن خرج المعتصم إلى الثغور ، فاتفق العباس مع بعض القواد على قتله ، فعلم المعتصم فقبض عليه وعلى أصحابه ، وسجنه إلى أن مات [٢٢٣هـ=٨٣٨م] .انظر :الأعلام (٢٦٢/٣) .

ما إن عصيتك والغواة تمدنى ... أسبابها إلا بنية طائع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع إليك بشافع
ورحمت أشبالا كأفراخ القطا ... وحنين والدة بقلب جازع

فقال المأمون : لا تثريب اليوم عليك[1] ، قد عفوت عنك ، ورددت عليك مالك وضياعك فأنشدت أقول :

رددت مالى ولم تبخل على به ... وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
أمنت منك وقد خولتنى نعما ... نعم الحياتان من موت ومن عدم
فلو بذلت دمى أبغى رضاك به ... والمال حتى أسل النعل من قدمى
وإن جحدتك ما أوليت من نعم ... إنى إلى اللوم أولى منك بالكرم

فقال المأمون : إن من الكلام كلاما كالدر ، وهذا منه ؛ وأمر لى بمالى، وخلع على وقال : يا عم إن أبا إسحاق والعباس أشارا بقتلك ، فقلت : إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين ولكن فعلت ما أنت أهله ودفعت ما خفت أنا بما رجوت ، فقال المأمون : لقد مات حقدى بحياة عذرك ، وقد عفوت عنك ؛ ثم سجد المأمون طويلا ؛ ثم رفع رأسه ؛ ثم قال : يا عم أتدرى لم سجدت ؟ قلت له : شكر الله تعالى على ما أوقعك على وملكك إياى فى يدك تفعل بى ما تشاء ، فقال : أخطأت ولكن أشكر الله تعالى على ما ألهمنى من العفو عنك من قبل نفسى ، ثم قال : وأعظم من عفوى عنك أننى لم أجرعك مرارة امتنان الشافعين فحدثنى بما كان من أمرك ، فشرحت له ما جرى لى مع الحجام ، والجندى وزوجته ، والمولاة التى أسلمتنى ، فأمر المأمون بإحضارها وهى فى دارها تنتظر الجائزة .

---

(١) لا تثريب عليك : أى لا لوم عليك .

فلما حضرت قال لها المأمون : ما حملك على ما فعلت من تسليمك إبراهيم مع إنعامه عليك ؟ قالت : رغبة فى المال ، قال : هل لك من ولد أو زوج ؟ قالت : لا ، فأمر بضربها مائة سوط وأمر بتخليدها فى السجن ، ثم أحضر الجندى وامرأته ، والحجام فسأل الجندى عن السبب الذى حمله على ما فعل ؟ قال: رغبة فى المال ، فقال : إنك أولى بأن تكون حجاما من أن تكون خداما ، ووكل من يلزمه الجلوس فى مكان الحجام ليتعلم الحجامة[1] وأحسن إلى امرأته وجعلها قهرمانة قصره وقال : هذه امرأة أديبة تصلح للمهمات ، وسلم للحجام دار الجندى وما فيها وخلع عليه وأثبته برزقه فى الديوان وزيادة ألف دينار فى كل سنة ؛ ولم يزل كذلك إلى أن مات ، والله أعلم .

[١٣١] **وعن محمد بن عبد الله التميمى قال** : حدثنا أحمد بن محمد الحريرى، قال : كان لحمنة بنت عبد الرحمن الهاشمى من الأموال، ما لا يسعه الديوان ، ولا تأكله النيران لكثرته ، وكانت آدب نساء بنى هاشم وأفصحهن لسانا ، وأقولهن شعرا ، فدخلت على المأمون يوما وكانت تحبه غاية الحب سرا ، وكان المأمون جالسا فى إيوان قد ابتدعه لنفسه لم يبتدعه أحد من الخلفاء قبله ، وكان قد تأنق فى بنائه وكان فيه من كل صورة فى البر والبحر ممثلة من الذهب والفضة ، وقد فرشه ببساط من الديباج الأصفر وأسبل عليه ستورا من الحرير الصينى وقد أقام فيه

---

(١) الحِجَامة : المداواة والمعالجة بالمِحْجَم ، قال الأزهرى : المحجم بالكسر هو الالة التى يجمع فيها الدم عند جذبه من الإنسان .

أربعمائة وصيفة بقراطق الحرير وقد لبسن الوشى[1] بطرر وشعور وإصداغ وهن بقد واحد ، لاتزيد الواحد منهن على الأخرى ؛ أقام مائتين عن يمينه ، ومائتين عن يساره .

فقال: ياحمنة هل كان لأبيك أو لبعلك أو لأحد من الخلفاء مثل هذا الإيوان ، مع فرشه ، ومثل هؤلاء الحوارى مع زينتهن ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين متعك الله به ، وعمره بك ، فلقد أوتيت ملكا عظيما تستأهله لترفهك وشرفك ، فإن أَحبْتَ خادمتك حمنة؛ أجلستك فى مجلس لم تجلس فى مثله قط ، وأصادتك صيدا لم تصد مثله قط ، وأسقتك شرابا لم تشرب مثله قط ، وكان عنده يحيى بن أكثم . فقال لها : ياحمنة قد أجبْتُكِ إلى ماسألتينى ، ولكن لاينفعنى ولايهنأ لى ذلك إلا بمشهد من يحيى بن أكثم، فإنه لايطيب لى مجلس إلا به . فقالت : نعم يا أمير المؤمنين ثم ضربت يدها فى جيبها فأخرجت منه مخزنة من ذهب أحمر محشوة مسكا أذفر ، فدفعتها إلى يحيى وقالت: يا يحيى إن الأجير لا يعمل حتى يستوفى أجرته ، وهذه أجرتك منى فكن مستحثا لى أمير المؤمنين غدا عند الزوال فى المسير إلى منزل خادمته ، فقال : حبا وكرامة . ثم خرجت من عنده فهيأت ما تحتاج إليه للمأمون وغيره .

فلما كان من الغد جلس المأمون فى مجلس السلام . فلما زالت الشمس وصارت فى كبد السماء ، قال يحيى : ياأمير المؤمنين الحاجة التى عرضت عليك بالأمس ، ففطن المأمون لذلك وقام من مجلسه ولبس ثياب

---

(١) الوَشَى : الثوب المنمنم المنقوش .

التجار ولبس يحيى مثل ذلك ، ودعا بحمارين مصريين بغاشيتين وركباهما حتى أتيا دار حمّنة ، فدقا الباب دقا خفيفا ، فسمعته فأقبلت بنفسها حتى فتحت الباب ، وأقبلا يمشيان جميعا حتى انتهوا إلى بيت فى بستان قد حمل على أربعة أعمدة من الرخام الأحمر المنقوش وإذا فى صدر البيت أربعة أسطر منقوشة بالدر وصنوف الجوهر وهى :

ما سرنى أن فؤادى ولا	أن لسانى بالمدام حلا
وأن لى ملك بنى هاشم	يجىء إلىّ أوّلا أوّلا
إن لم أشاهدك أياما لكى	تأتى إلى بيتى كذا مقبلا
يا سائلى روحى بلا علة	أنت المعافى وأنا المبتلى

فقال المأمون : يا يحيى ما ملك أحد من الخلفاء مثل هذا البيت ، وإذا فرشه أرمنى محفور منقوش باللآلئ ، وإذا فوق الأرمنى مطارح من الديباج الأخضر حشوها حواصل الريش ، وفى البيت المسك والعنبر والكافور والصندل والزعفران والند والعود مصفوف فى أوانى الذهب والفضة ، وتفوح منه روائح لايدرى ماهى من طيبها ؛ ثم أخرجتهما إلى أربعة ميادين فيها أنواع الرياحين حول البيت.

فقالا : إن هذا إلا سحر يؤثر ، ثم دعت لهما بمائدة من الخزع اليمانى قوائمها منها قطعة واحدة فوضعت وقدمت عليها الألوان الغريبة ، فقال المأمون : ما طعمت مثل هذا الطعام قط، ثم دعت بالطشت والإبريق فغسلا أيديهما ، ثم أمرت بشراب فقدمت إليهما قنانى الزجاج الشامية المرتفعة الصافية والبلور فيها شراب قد أتت عليه الأيام والأعوام، فهى تحكى الهواء لرقتها ، والياقوت لحمرتها والزنجبيل لحدتها ، ووضعت بين

أيديهما مع أقداح وأنطال[1] تشاكل ذلك ؛ فقال المأمون : والله ما رأيت مثل هذا قط ، ثم أخرجت جاريتين عليهما ثياب الوشى الكوفى المنسوج بالذهب وعلى رؤوسهما مقانع رشيدية وتيجان من الذهب مكللة بالجوهر، فجلستا وفى حجرهما العيدان المبسوطة الموزونة ، فحركتا الأوتار وغنتا بصوت شجى مليح من أنواع الأغانى وغرائب الأصوات.

فقال المأمون : هذه الجنة بما نرى فيها من غرائب الطيب والجوهر، فقال يحيى : وقد بقى لنا يا أمير المؤمنين شرط آخر ، فقال : وما هو يا يحيى؟ قال : الصيد يا أمير المؤمنين ، قال : صدقت يا يحيى ، ثم قال : يا حمنة ما فعل الصيد ؟ فقالت : قوما إليه فقام المأمون ويحيى حتى دخلا بستانا لم يريا مثله ، وقد كانت زينت البستان بأحسن ما تقدر عليه ، واتخذت فيه ألوان الطيور من الفاخت ، والقمرى ، والهزار ، والطواويس فكانت الأطيار تغنى من رؤوس الأشجار ، وتغرد بالسر والأجهار ، وقد كانت زينت مائة جارية نواهد أبكار بطرر وشعور وخدود ومباسم ساطعات الأنوار ، ترى كل واحدة منهن أبهى من صاحبتها وأحسن ، وعليهن من ألوان الثياب ما يعجز عنه الوصف ، وفى وسطهن مناطق الذهب الأحمر، وتقدمت إليهن وقالت لهن : إذا رأيتن المأمون ويحيى تعادين ما بين الأشجار .

فلما دخل المأمون ويحيى البستان فعلن ما كانت أمرتهن فتضاعف السرور على المأمون وأعجب المأمون بذلك عجبا شديدا ؛ ثم قال ليحيى:

---

(١) أنطَال ، مفردها النَيْطَل : وعاء يكال به الخمر واللبن ، ونحوهما .

هذا الصيد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين رأيك فيه ! فقال المأمون : لو كان لنا كلب لاصطدنا هؤلاء ، فقال يحيى : أنا كلبك يا أمير المؤمنين فعدا المأمون ويحيى فاصطادا منهن صبية ، فقالت حمنة : سألتك بحق أحدادك ألا ما خليت عن الحوارى لا لبخل أبخل بهن عليك ، وقد فهمت المعنى فيه ، وقد كانت حمنة تغار على المأمون ، فخلى عن الحوارى وقال ليحيى: دونك والصيد إذن أنت محل .

فقال يحيى : لو كان لى كلب لاصطدت من هؤلاء فقال المأمون : أنا كلبك فضحك يحيى وضرب بقلنسوته الأرض ، وعدا خلفهن فأخذ منهن خمسة ، فقالت حمنة : يا يحيى لك الخمسة ولاغيرة لى عليك ، وإنما أغار على المأمون لحاجتى إليه ، فقال يحيى : والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت الهوى الغالب فى حماليق عينيها ولا تتم لنا النعمة إلا بتزويحك إياها إن رأيت ذلك، فقال المامون : أنا برىء من رسول الله ﷺ ومنتف من جدى العباس إن ذهبت من البستان ولم أتزوجها ، ثم قال : يا يحى أخطب خطبة النكاح ، فخطب يحيى وأمهرها المأمون ألف ألف دينار وأقطعها مائة من منتخبات الضياع ؛ فحمدت حمنة الله سرورا بما ظفرت من تزويج المأمون إياها ؛ وأمرت ليحيى بعشرة آلاف دينار ، ورجع المأمون إلى منزله وزفت إليه فى تلك الليلة فواقعها فحملت بالعباس ابنه انتهى .

[١٣٢] وحكى : أن المأمون كان مشغوفا بحب جارية يقال لها : نسيم ، وكانت ذات عقل وأدب وفضل وكمال ، وكان لا يفارقها فى الحضر ولا فى السفر ؛ ثم بعد ذلك مال إلى جارية أخرى أحسن منها

وأعرض عنها ، فاغتمت ولم تجد حيلة فى استعطافه ، وكانت لها جاريه رومية أحسن منها فى العقل والأدب ، وكتمت أمرها عن المأمون . فاتفق أن المأمون حصل له بعض ضعف ففصد[1] فحصل له الشفاء ، فجعل الناس يدخلون إليه بأصناف التحف والهدايا ، فأهدت إليه نسيم الجارية المذكورة هذية ومعها جام بلور[2] وغطته بمنديل ديبقى مكتوب عليه بالذهب هذه الأبيات :

فصدت عرقا تبتغى صحة	ألبسك الله به العافية
فاشرب بهذا الجام يا سيدى	مستمتعا بهذه الجارية
واجعل لمن أهداكها زورة	تحظى بها فى الليلة الثانية

فأعجب المأمون ما رأى من الجام والجارية ، ثم بعث لها يقول : نعم وفى هذه الليلة ثم رضى على نسيم وواصلها بعد ذلك .

[١٣٣] وحكى : أن المأمون مر يوما على زبيدة أم الأمين فرآها تحرك شفتيها بشىء لا يفهمه فقال لها : يا أماه أتدعين علىَّ لكونى قتلت ابنك وسلبته ملكه ،قالت: لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : فما الذى قلتيه؟

قالت : يعفينى أمير المؤمنين فألح عليها ، وقال : لابد أن تقوليه قالت له : قلت : قبح الله اللجاجة[3] ، قال : وكيف ذلك ، قالت : لأنى لعبت يوما مع أمير المؤمنين الرشيد بالشطرنج على الحكم والرضا ، فغلبنى

---

(١) فَصَدَ المريض : شقّ عرقه حتى يسيل الدم .

(٢) جام بلور : كأس من البلور .

(٣) اللَّجَاجَة : التمادى فى العناد إلى الفعل المزجور عنه .

فأمرنى أن أتجرد من أثوابى وأطوف القصر عريانة ، فاستعفيته ، وبذلت له أموالا لا تحصى فلم يعف عنى ، فتجردت من أثوابى وطفت القصر عريانة، وأنا حقدة عليه ؛ ثم عاودنا اللعب فغلبته ، فأمرته أن يذهب إلى المطبخ فيطأ أقبح جارية وأشوهها خلقة ، فاستعفانى عن ذلك فلم أعفه ، فنزل لى عن خراج مصر والعراق فأبيت ، وقلت : والله لتطأنها فألححت عليه وأخذت بيده وجئت به إلى المطبخ ، فلم أر جارية أقبح ، ولا أقذر ، ولا أشوه خلقة من أمك ؛ مراحل ، فأمرته أن يطأها فوطئها ، فعلقت منه بك فكنت سببا لقتل ولدى وسلبه ملكه ، فولى المأمون وهو يقول : قاتل الله اللجاجة ، أى التى لج بها عليها حتى أخبرته بهذا الخبر انتهى[1] .

[١٣٤] [وقيل] : أتى شاعر المأمون ، فقال : لقد قلت فيك شعرا ، فقال : أنشدنيه فقال :

حياك رب الناس حياكا ... إذ بجمال الوجه رقاكا
بغداد من نورك أشرقت ... وأورق العود بحدواكا

قال : فأطرق المأمون ساعة ، وقال : يا أعرابى ، وأنا قد قلت فيك شعرا وأنشد يقول:

حياك رب الناس حياك ... إن الذى أملت أخطاك
أتيت شخصا قد خلا كيسه ... ولو حوى شيئاً لأعطاك

فقال يا أمير المؤمنين الشعر بالشعر حرام ، فاجعل بينهما شيئاً يستطاب، فضحك المأمون وأمر له بمال انتهى .

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/١١٥) .

[١٣٥] وروى ابن عامر الفهرى عن أشياخه قال : أمر المأمون أن يحمل إليه من أهل البصرة عشرة رجال كانوا قد رموا عنده بالزندقة ، فحملوا إليه فمر بهم طفيلى[1] فرآهم مجتمعين ، فظن خيرا ومضى معهم إلى الساحل ، وقال ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة ، فانسل ودخل الزورق ، وقال : لا شك أنها نزهة ، فلم يكن إلا يسير حتى قيد القوم وقيد معهم ، فعلم أنه وقع فيما لا طاقة له ورام الخلاص فلم يقدر ، وساروا إلى أن وصلوا إلى بغداد ، وأدخلوا على المأمون فاستدعى بهم بأسمائهم واحدا بعد واحد وجعل يذكره بفعله وبقوله ويضرب عنقه حتى لم يبق إلا الطفيلى وفرغت العشرة .

فقال المأمون للموكل : من هذا ؟ فقال : لا أعلم يا أمير المؤمنين غير إننا رأيناه معهم فجئنا به، فقال : يا أمير المؤمنين امرأتى طالق إن كنت أعرف من أحوالهم شيئا ولا أعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإنما رأيتهم مجتمعين فظننت إنها وليمة يدعون إليها ، فلحقت بهم. فضحك المأمون ، وقال : أو قد بلغ من شؤم التطفل أن يحل بصاحبه هذا المحل ، لقد سلم هذا الجاهل من القتل ولكن يؤدب حتى لا يعود إلى مثلها ، وكان إبراهيم بن المهدى حاضرا ، فقال : يا أمير المؤمنين هبه لى، وأنا أحدثك عن نفسى فيما وقع لى فى التطفل من العجب ، فقال : وهبته لك هات حديثك .

فقال : يا أمير المؤمنين خرجت متنكرا يوما أنظر إلى سكك بغداد ، فاستهوى بى الطرب والتفرج فانتهى بى المسير إلى موضع شممت فيه

---

(١) طُفَيْلى : الذى يدخل وليمة ولم يُدع إليها ، وهو منسوب إلى رجل اسمه طُفَيْل .

رائحة طعام وأبازير[1] قد فاحت وهفت نفسى إليها ، ووقفت يا أمير المؤمنين لا أقدر على المشى فرفعت بصرى وإذا بشباك خلفه كف بمعصم ما رأيت أحسن منه ، فبقيت حائرا ونسيت رائحة الطعام بذاك الكف ، فأخذت فى عمل الحيلة إلى الوصول إليها ، فإذا بجانب المكان خياط فسلمت عليه فرد علىَّ السلام ، فقلت : يا سيدى لمن هذه الدار ؟ فقال: لرجل من البزازين ، فقلت : ما اسمه ؟ فقال : فلان ، قلت : هو ممن يشرب الخمر قال : نعم ، وأظن أن عنده اليوم أصحابه تجار مثله ، فبينما نحن فى الكلام إذ أقبل رجلان ، فقال لى : هذان ندماؤه ، فقلت له : ما اسمهما وما كنيتهما ؟ فقال لى: فلان الفلانى ، وفلان الفلانى ، فحركت ورائهما رجلى ، فلحقتهما فقلت : جعلت فداءكما استبطأكما فلان أعزه الله ، ولم أزل معهما حتى أتيت البيت فدخلت، ودخلا . فلما رآنى صاحب البيت بينهما لم يشك فى أنى معهما ، فرحب بى وأجلسنى فى أفضل الأماكن ثم جىء بالمائدة ، ونقلت إليها الألوان .

فقلت فى نفسى : هذه الألوان قد منَّ الله علىَّ ببلوغ الغرض منها بقى الكف والمعصم ، ثم جىء بالماء فغسلنا أيدينا ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة، فإذا شكل مليح ما رأيت أحسن منه ولا أظرف ، ورأيت صاحب المكان يتلطف بى ويقبل على لظنه أنى ضيف لأضيافه ، وهم على الحالة هذه إلى أن شربنا فخرجت علينا جارية كأنها غصن بان فى غاية الظرف وحسن الهيئة ، فسلمت من غير خجل ولا احتشام وجلست وأتى بعود فجسته أحسن جس وإذا هى حاذقة فى الصناعة وغنت تقول :

---

(١) البِزْر ، جمعه أبْزَار ، وجمع الجمع أبازير : التابل ، وهو ما يطيب به الغذاء .

توهمها فكرى فأصبح خدها وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
وصافحها كفى فآلم كفها فمن ضم كفى فى أناملها عقر

فهيجت يا أمير المؤمنين بلبالى فطربت لحسن شعرها وحذقها ، ثم غنت تقول :

أشرت إليها هل عرفت مودتى فردت بطرف العين أنى على العهد
فحادت عن الإظهار عمدا بسرها وحادت عن الإظهار أيضا على عمد

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذاقتها وإصابتها معنى الشعر ، فضحكت لما أصابنى من الطرب الذى لم أملك نفسى معه ، ثم غنت تقول:

أليس عجيبا أن بيتا يضمنا و إياك لا نلهو ولا نتكلم
سوى أعين تبدى سرائر أنفس وتقطيع أنفاس على النار تضرم
إشارة أفواه وغمز حواجب وتكسير أجفان وكف يسلم

فزاد حسدى لها يا أمير المؤمنين على حذاقتها ، وإصابتها معنى الشعر ، لأنها لم تخرج عن المعنى ، وقلت : عليك يا جارية شيء ، فرمت العود من يدها ، وقالت : متى كنتم تحضرون الغناء ! فندمت على ما كان منى ، ورأيت القوم كأنهم قد أنكروا علىَّ ، فقلت فى نفسى : فاتنى جميع ما أملت وأحببت أن أتلافى قضيتى ، فقلت : أثم عود غير هذا ؟ قالوا : نعم فأحضروا عودا فأصلحت ما أردت إصلاحه ، ثم قلت:

ما للمنازل لا تجيب حزينا أصممن أم قد بالبلاء بلينا

فما أتممت شعرى ، حتى وثبت الجارية إلى وانكبت على يدى تقبلها، وتقول: المعذرة إليك يا سيدى والله ما علمت مكانك ولا سمعت بهذه الصناعة من أحد ، ثم زادوا إكرامى وطربوا غاية الطرب ، فشربت عدة أقداح ثم غنيتهم أبياتا فرأيت من طربهم شيئاً عظيما ، حتى قلت : إن أرواحهم فارقت أبدانهم فسكت عنهم ساعة حتى تراجعوا إلى عقولهم فغنيتهم ، وقلت :

هذا محبك مطوى على كمده ... وحدا وأدمعه تجرى على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته ... مما به واليد الأخرى على كبده
يا من يرى كلفا فى حبه دنفا ... كانت منيته فى عينه ويده

قال : فجعلت الجارية تصيح وتقول : هذا والله الغناء ، والذى كنا فيه ليس بشىء . وشرب القوم ؛ فلما جاءهم البسط وأخذ المجلس منتهاه، أمر صاحب البيت عبدين له أن يحفظا النديمين إلى منزلهما ، وخلوت معه فقال : والله يا سيدى ذهب ما مضى من عمرى باطلا حيث لم أعرفك قبل يومى هذا فبالله يا مولاى من أنت؟ فجعلت أرد عليه وهو يقول ، ويقسم علىَّ حتى أعلمته من أنا على الحقيقة ، فلما سمع ذلك قام على قدميه وقال: عجبت أن تكون هذه المكارم إلا لمثلك ، وقد أصابنى من الدهر نعم لا أقوم بشكرها ، ثم قال : أترى هذا يقظة أم مناما أقسمت أنى لا أزال هذه الليلة قائما إلى أن تأذن لى فإنى أحقر من أن أجالس الملوك ، فأقسمت عليه بأن يجلس ، ثم أخذ فى الكلام وجعل يعرض على السبب الذى أوجب حضورى عنده بألطف تعريض ، فأخبرته بأمرى على الحقيقة، ولم أخفه شيئاً ثم قلت له : الطعام قد نلت منه بغيتى ، وبقى الأمر الآخر فوثب إلى باب القاعة ، وقال : كل منكن تلبس أفخر ثيابها وتخرج علينا

من المخدع ، ثم استدعى بهن وجعل يقول : يا فلانة وهن يخرجن واحدة بعد واحدة ، وأنا لا أرى صاحبة الكف والمعصم إلى أن أتى أربعون امرأة.

فقال والله ما بقى إلا أختى وها أنا مخرجها إليك، فقلت : افعل ، فقال : حبا وكرامة ، ثم استدعاها فنزلت فرأيت يدها ومعصمها ، فإذا هى التى رأيتها ، قلت : هذه الحاجة ، فأمر غلمانه لوقته أن يأتوا بعشر شهود ثم قام وأخرج عشرين ألف درهم وألفا أخرى . فلما حضروا قال لهم : هذا سيدى إبراهيم بن المهدى يخطب أختى فلانة ، وأشهدكم أنى قد زوجتها له وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم ، فقلت : قبلت الزواج ، ثم دفع الألف التى كان أخرجها لهم، فشكروا له ودعوا وانصرفوا ؛ ثم قال : يا سيدى أمهد لك بعض البيوت لتنام مع أهلك ، فأعجبنى ما كان من كرمه واستحييت أن أدخل بها فى داره .

فقلت له : بل أجعلها فى عمارية وأحملها إلى منزلى فوحقك يا أمير المؤمنين ، لقد حمل معها من الفرش والأثاث ما ضاقت به بيوتنا ، فأولدتها هذا الغلام القائم بين يديك يا أمير المؤمنين . فتعجب المأمون من كرم الرجل وقال : لله دره ما أكرمه والله ما سمعت بمثله قط . ثم أطلق الطفيلى ، وأمر بإحضار الرجل واستنطقه ، فأعجبه حسن منطقه وعقله وأدبه فصيره من جملة خواصه ومناديه ، والله أعلم .